أهمية دعوة

غير المسلمين

في العصر الحديث



محمد شمس الحق صديق

www.shamsulhoquesiddique.com

E-mail:mshsiddique@gamil.com

بسم الله الرحمن الرحيم

لا شك أن التدين غريزة من الغرائز تشترك فيها الأجناس البشرية جميعها بدءاً من أشدها همجية إلى أرقاها تحضراً. وهذه الغريزة تصل في تغلغلها إلى أعماق فطرة الإنسان، وفي إحاطتها بمشاعره حداً بحيث لا قبل لأحد باستئصالها أو التخلي عنها مهما بذل في سبيل ذلك من المحاولات. فالتدين كما يقول أرنست رينال[1] مما يستحيل انمحاؤه و إن كان من الممكن أن يضمحل كل شيء سواه مما يحبه الإنسان[2].

التدين غريزة إنسانية مشتركة لا يمكن استئصالها في حال من الأحوال.

وإذا كان التدين متغلغلا في فطرة الإنسان بهذه الدرجة من القوة والإلحاح من جهة، فإنه من جهة أخرى يجد الإنسان المعاصر الأديان التقليدية – المسيحية واليهودية والهندوسية و غيرها- مما لا يستقيم أمام المعيار العلمي الرصين والمقياس البرهاني القاطع. فالعقيدة المسيحية عبارة عن أسرار وألغاز لا تقدرحتي أكثرالعقول ذكاءً على حل رموزها والاقتناع بمحتوياتها. واليهودية تحصر نعم الرب و جنته لنسل بشري معين دون بقية الأنسال. والكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد عبارة عن مجموعة

الإنسان المعاصر بين شقي الرحي

[1] - عالم فرنسي ولد في فبراير (1823ميلادي) وتوفي في 2 أكتوبر (1892ميلادي) وقد أثار كتابه ((حياة المسيح)) جدلًا عنيفًا من أجل تصويره للمسيح إنسانًا محضًا، ومن مؤلفاته الكثيرة : ((تاريخ أصول الديانة المسيحية)) و(يعتبر ((حياة المسيح)) الجزء الأول من هذا الكتاب) و((تاريخ بني إسرائيل)) (انظر Lexicon Universal Encyclopedia المجلد 16، ص 157).

[2] ـ انظر عبد الله دراز: الدين، بحوث ممهده لدراسة الأديان، ص 82 – 83 (د . نا) ط (د . ت)

متناقضات علمية[1] تجعل الإنسان المعاصر بين شقي الرحى، إما أن يكفر بتلك المكتشفات جميعها متمسكا بالخرافات التي تحتوي عليها الديانة المسيحية الراهنة، فيكون كمن ينكر الشمس و هي ساطعة بكل وهجها أمام ناظريه- ذلك أمر لا أشد منه ولا أقسى على الإنسان المعاصر، مما يجعله يعاني صداعاً مريراً واضطراباً ذهنياً لا ينفصل [2]- وإما الكفر بالكتاب المقدس وما فيه ثم البقاء ملحداً خفيةً أو جهاراً فاقداً لمعني الحياة[3]، ومعانياً على المستوى العقلي حرباً عواناً لا تخمد لها نار[4]، ثم مستجيراً بالعلم (science) على أمل أن يروي ما به من لوعة التدين، غير أن كل إصرار على إطفاء هذه اللوعة بواسطة العلوم المادية المجردة لايزيدها إلا إشعالاً[5]؛ إذ " إن الإنسان يتطلع إلى معرفة حقائق الأشياء بينما العلم يخبره عن هيكل الأشياء فقط. والإنسان حريص على معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة: كيف بدأ الكون؟ وما المصيرالذي يتوجه إليه ؟ بينما العلم يزوده ببعض المعلومات عن المراحل الوسطى بين هذين السؤالين. الإنسان يريد أن يسبر غور ماهية الأشياء في حين أن العلم يُنبئه عن حقائقها الخارجية فقط، ويرغب الإنسان في معرفة ريح الورد بينما يفسر له العلم كيمياء الورد. والإنسان يريد

الإنسان يتطلع إلى معرفة حقائق الأشياء بينما العلم يخبره عن هيكل الأشياء فقط.

1 ـ قد فصل الدكتور موريس بوكاي هذه المتناقضات في كتابه "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم"

2 ـ يقول مستر واجنرم، الهولندي الجنسية، والذي اتخذ لنفسه بعد إسلامه اسم فيصل محمد، يقول بياناً للحالة الذهنية التي يعيشها قبل اعتناقه الإسلام: " فقد كنت قبل ذلك في حالة ذهنية مضطربة، وهي حالة تسود معظم الشباب في أوروبا الغربية، كما هو معلوم، وكنت حينئذٍ عضواً في الكنيسة الكاثوليكية بهولندا، ولم تكن لدي الشجاعة الكافية لكي أدعو نفسي مسيحياً حقيقياً بمعنى الكلمة، فقد كنت أعاني صداعاً دائماً من جراء تفكيري التقدمي من جهة وإيماني بالعقائد المسيحية التي يجب أن يتقبلها الإنسان النصراني من جهة أخرى" (عرفات كامل : رجال ونساء أسلموا : الحلقة الخامسة، ص35).

3 ـ انظر الشريط المرئي Lawrence Islamic video إنتاج American Becoming Muslim

4 ـ انظر وحيدالدين خان : الدين الكامل ، ص327، القاهرة، الرسالة للإعلام الدولي، ط1/ 1992ميلادي نقلًا عن برتراندراسل : Autobiography ص727.

5 ـ انظر عبد الله دراز : الدين، ص94.

أن يعرف أغوار عقله وروحه، بينما العلم يقدم له التشريحات حول الأجزاء المادية للجسم. وخلاصة القول إن الإنسان يتطلع إلي معرفة الخالق، بينما العلم يحدثه عن المخلوق فحسب [1].

و بعد أن يخيب العلم أمله في إرواء عطشه الروحي يقف حائراً متردداً بين التقهقر إلى معتقدات آبائه وأجداده- والتي سبق أن كفربها بحكم عدم توافقها وانسجانها مع المكتشفات والأحكام العلمية القاطعة، فيحاول جاهداً ترويض عقله عليها، ولكنه في الغالب يأبى الارتضاء بهذه العودة [2]- وبين البقاء على ما هو عليه. وقد صور شبنغلر [3] وهـ . جـ. ولز [4] هذه الحيرة والتردد حين قالا: " لا طريق هناك إلى الخارج أو إلى ما حول أو إلى الداخل" [5].

لا طريق هناك إلى الخارج أوإلى ما حول أو إلى الداخل

[1] - وحيد الدين خان : الدين الكامل ، ص331 – 332.

[2] - انظر الشريط المرئي American becomimg muslim وفيه أن البروفيسور جيفري لينغ في حين معاناته في حضن الإلحاد كان يساوره الإحساس، بين الحين والآخر، للعودة إلى العقيدة المسيحية، ولكن عقله ما كان يرتضي بذلك بسبب ما في المسيحية – عقيدة ونصوصاً – من التناقضات العلمية الصارخة.

[3] - وهو أوزولد شبنغلر (Oswald Spengler) (1880 – 1936) فيلسوف ألماني قال بأن الحضارة الغربية المعاصرة هي في طريقها إلى الموت. (انظر منير البعلبكي : معجم أعلام، ملحق قاموس "المورد" إنجليزي عربي ، ص80 ، بيروت دار العلم للملايين. ط23/ 1989).

[4] - وهو هريرت جورج ولز (Herbert George Wells) – (1866 – 1946ميلادي). روائي ومؤلف إنجليزي، ويعتبر أحد أبرز كتاب الروايات العلمية. (انظر المرجع السابق نفسه: ص88).

[5] - انظر كولن ولسن : سقوط الحضارة، ترجمة أنيس زكي حسن، ص136 – 137بيروت، دار الآداب، ط4/ 1987ميلادي.

عقل الإنسان لا يستقل بمعرفة تساؤلات الإنسان الكبرى.

والإنسان المعاصر حين يجد نفسه واقفًا في هذا الموقف الحرج فإنه لا يرى أمامه من خيار إلا الهيام على وجهه إلى اللامعاني واللاغايات يائساً من أن تساؤلاته الكبرى التي تقود إليها غريزة التدين لن تلقى إجابة. وفي هذا يقول برتراند راسل: "إن الفلا سفة الغربيين يعترفون اعترافاً صارخاً بأن العقل ليس بمقدوره أن يعثر على إجابة حاسمة عن تلك التساؤلات التي تعد ذات أهمية بالغة للجنس البشري، إلا أنهم يرفضون الاعتراف بأن هناك طريقاً أعلى للمعرفة يمكن بواسطته أن نكتشف تلك الحقائق الخارجية عن متناول يد العلم والعقل" (1).

[1] - وحيد الدين خان ، الدين الكامل، ص331، نقلًا عن برتراند راسل : A history of western philosophy ص789.

ومن الخطأ ما قالت به المعتزلة بأن عقل الإنسان هو رسوله وأنه يمكن أن يستقل بمعرفة تساؤلات الإنسان الكبرى[1] دون أن يبلغ إليه وحي السماء. فتاريخ الفلسفة بأسره يناقض دعوى المعتزلة. وقد نقل برتراند راسل - كما مر آنفاً - إجماع الفلاسفة الغربيين الذين توفرت لهم من وسائل البحث والإمكانات ما لم تتوفر لغيرهم. وما "حي بن يقظان" [2] إلا صورة ذهنية نسجها خيال ابن طفيل[3]، والتي لا تعدو كونها إسقاطًا لإيمانية ابن طفيل والتي استقاها من وحي السماء، القرآن الكريم، بحكم كونه مسلماً. فلو كان ابن طفيل من طينة أخرى غير طينة الإسلام لما وسعه أبداً إنجاب حي بن يقظان، ذلك الخيال الذي لم نر ولو نظيراً واحداً في الواقع الإنساني المعاش. لا أظنني بحاجة إلى تعداد مجهودات كبريات العقول البشرية في هذا المضمار، بل يكفي إلقاء نظرة على "قصة الفلسفة" لول ديورانت للتأكد من ذلك. فأقصى ما يستطيع أن يفعله العقل والعلم المجردان بالذي لم يصل إليه وحي السماء وهو إيصاله إلي مرحلة "الحنفاء" التي يصبح فيها المرء راغباً عن معتقداته التقليدية مائلاً إلى الإيمان بإله واحدٍ دونما علم ما الذي يريد منه هذا الإله؟ ولماذا خلق هذا الكون ؟ وما مصير الكون ومصيره ؟

حي بن يقظان ما هو إلا صورة ذهنية نسجها خيال ابن طفيل.

1 ـ انظر الزمخشيري : الكشاف، المجلد 2، ص441، بيروت، دا رالمعرفة، ط (د . ت).

2 ـ رواية فلسفية بطلها "حي بن يقظان" وخلاصة الرواية أن "حي بن يقظان" حملت به أمه سراً على مخافة من أخيها الذي لم يزوجها بسبب عدم العثور على كفؤلها. وقذفت به أمه في اليم فاحتمله اليم إلى ساحل جزيرة أخرى خالية من البشر. فاحتضنته ظبية دافعت عنه شر الوحوش. وفي تلك الجزيرة المعزولة أخذ حي بن يقظان يشب ويكتشف حقائق الحياة من أدناها إلى أعلاها. حتي أنه أصبح يخاطب أهالي الجزيرة القريبة، بعد أن ذهب إليها بصحبة أسال – صديقه بالصدقة الذي اكتشف بواسطته أن ما توصل إليه بعقله المجرد هو عينه الذي ينزل به وحي السماء – خطاب الأنبياء.

3 ـ وهو محمد بن طفيل المغربي (....... -1179ميلادي) حكيم من آثاره : أسرار الحكمة، رسالة حي بن يقظان، ورسالة الطبيعيات، ورسالة في النفس. (انظر عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، الجزء 10، ص 104)

فقد كان في عصر ما قبل الإسلام كثيرممن وصلوا إلى هذه المرحلة يذكر في طليعتهم زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى [1] الذي رغب من معتقدات آبائه متوصلاً إلى أنه لاإله إلا الله وحده، و لكن لم يتمكن أن يكشف بعقله أحب الوجوه إلى عبادته، فهام على وجهه في الجزيرة العربية والشام عله يتوصل إلى شيء من ذلك، ولكنه لم يدرك مبتغاه، فكان من شأنه أن يقول : " اللهم إني لوأعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته "[2]. ولعل الصورة تتكرر من جديد في العصر الحديث في غياب بلاغ الوحي المحفوظ. فهذا إنجلز[3] نسمعه يقول في لحظة من لحظات الاحتراق، ضارعاً باكياً: " إنني أدعو كل يوم، وأقضي اليوم كله داعياً أن تنكشف لي الحقيقة. لقد أصبح الدعاء هوايتي منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي. لا أستطيع أن أقبل عقائدكم. إن قلبي يفيض بالدموع الغزار، وأنا أكتب هذه السطور، قلبي يبكي، عيني تبكي، و لكنني أشعر أنني لست بطريد من رحمة الله، بل أن آمل أن أصل إلى الله الذي

أقصى ما يمكن أن يفعله العلم والعقل المجردان هو إيصال المرء إلى مرحلة الحنفاء.

[1] - وهو زيد بن عمر بن طفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله القرشي العدوي، كان يتعبد في الجاهلية، يطلب دين إبراهيم الخليل، وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده (انظر ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، الجزء2، ص 295).

[2] - انظر ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء 2، ص237، بيروت، مكتبة المعارف، الرياض، مكتبة النصر، ط1966/1ميلادي.

[3] - وهو فريدريك إنجليز (Friedrich Engels) المولود في 28 نوفمبر 1820، المتوفى في 5 أغسطس 1895ميلادي. كان مشاركاً لكارل ماركس في طرح الفلسفة الماركسية الثورية، كما كان لدعمه المادي والأيديولوجي لماركس دوراً بارزاً في انتشار الماركسية. وهوالذي أكمل المجلد الثاني والثالث لكتاب ماركس "رأسمال" (Daskapital). ومن مؤلفاته الأخرى: "حالة الطبقة الكادحة في بريطانيا" (ط 1845). (انظر Lexicon Universal Encyclopedia): المجلد 7، ص 176).

أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي وأقسم بحياتي أن عشقي وبحثي هذا لمحة من روح القدس، ولن أقلع عن تفكيري هذا ولو كذبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة !!)) [1].

إن إنجلز عندما يطلق صرخته القاسية ((إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم)) فإنه في الحقيقة يطلقها في وجه بعض الصورة الدينية المشوهة التي عَفى عليها الدهر في بيئة لم تتبلور صورة الوحي المحفوظ (الإسلام) فيها، نتيجة قعود أهله عن الدعوة إليه . الأمر الذي جعل القوم يعتبرون الدين – أيَّ دين قياساً على دينهم – عبارة عن مجموعة أساطير و معتقدات و ليس حقائق، كما صرح به كولن و لسن قائلاً: ((إن العنصر الذي يجعل من أي دين قوة تستقطب حولها الحضارة يتألف من الأسطورة والعقائد لا من الحقائق العامة)) [2].

فهم حين يولون دبرهم عن الدين بسبب تلك الصورة المزيفة فإن ذلك لا يكون مرادفاً لاستئصال شأفة التدين من قلوبهم بل إن العطش الفطري للتدين يظل متقداً بداخلهم ينتظر الإطفاء.

وكان يأب حب الله ولطفه بهذا المخلوق – الإنسان الذي خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه أن يتركه في هذا الضنك في الدنيا وعذاب الخلد في الآخرة، أن يخلق له عطشاً ولا يهيئ له ماءً ؛ لذا رتب الله تعالى إعلام البشرية بما تحتاجه من معرفة عن نفسها وعن

1 - نقلاً عن وحيد الدين خان: الإسلام يتحدى، ترجمة : ظفر الإسلام خان، ص244، القاهرة، المختار الإسلامي، ط (د.ت)).

2 - كولن ولسن: سقوط الحضارة ص157 – 158.

مصيرها. فكان أن اصطفى لهم من أنفسهم رسلاً وأنبياء يتلو عليهم وحيه الذي هو تبيان لكل شيء مهم للإنسان.

وكان فرضاً على الرسل أن يبلغوا وحي الله هذا إلى عباده بلاغاً مبيناً، حتي تتضح لهم معالم الطريق التي ينبغي أن يسيروا على هداها وتصبح إرادةالله ومرضاته بارزة مألوفة أمام أعينهم . وتدل على هذه الفريضة أوامر الله المباشرة إليهم في العديد من الآيات:

يقول تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَن أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾[1].

و يقول تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2]. **و يقول تعالى :** ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾[3]. **ويقول تعالى:** ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[4] **ويقول تعالى :** ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[5].

1 ـ سورة النحل، الآية:2
2 ـ سورة نوح، الآية: 1
3 ـ سورة المدثر، الآيات:1-2
4 ـ سورة النحل، الآية:125
5 ـ سورة المائدة، الآية:67

وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ

وإذا كانت رحمة الله، في القديم، قد اقتضت أن ترسل رسله تترى إلى كل الأمم [1] فإن سيكون من غير المعقول - والأمر في تلك الخطورة والأهمية - أن يتخلى الله نفسه عن رحمته تجاه آلاف الأجيال البشرية الآتية إلى يوم القيامة. لذا قضت رحمته أن تورث هذه المهمة أمة بكاملها اصطفاها من بين عباده [2] لسبق علمه، وهو علام الغيوب، أن البشرية في آخر الزمان ستشهد تكاثراً لم تشهده في سالف الأزمان كنتيجة تلقائية للتوسع العددي من أولاد آدم – عليه السلام – مما يتطلب ملايين المبلغين حتى يتجلى إرادة الله أمام تلك المليارات تجلياً كاملاً. لذلك طلب الله في أمر تكليفي إلى الأمة المحمدية أن تصدع بهذا الأمر قائلاً : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [3].

والعصر الحديث يقتضي ملايين المبلغين حتى تتجلى إرادة الله أمام المليارات من البشر.

ومن المقررات الشرعية من الدلالات القرآنية – كما يذهب إليه الإمامان، أبو حنيفة وأحمد بن حنبل وأصحابهما، أن كل أمر للنبي صلى الله عليه و سلم أمر لأمته ما لم يقم دليل الفرق والاختصاص [4]. وما دمنا نفتقد مثل هذا الدليل فيما نحن بصدده – بل من الآيات القرآنية ما دلت صراحة على إشراك الأمة في هذه المهمة كما هو واضح في الآية آنفة الذكر – فهذا يعني أن أوامر الله الصادرة إلى الرسول الدالة على الوجوب هي

1 - (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) سورة فاطر : 24.

2 - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) سورة فاطر : 32.
3 - سورة يوسف، الآية: 108
4 - انظر الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الدكتور سيد جميل، الجزء 2، ص279، بيروت دار الكتاب العربي، ط2/ 1986.

أوامر صادرة إلى كل فرد من أفراد أمته. لذلك قال الإمام أبو زهرة تعليقاً على هذه الآية بأنها دلت على أمور ثلاثة :

أولها : أن دعوة المؤمنين غيرهم من بني البشر تدخل ضمن شروط اتباع النبي، فمن تخاذل عن الدعوة لا يعد تابعاً للنبي.

ثانيها : أن تكليف النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغ رسالة ربه تكفيل لأمته، لا يتخلى عنه مؤمن ولا يتركه أمين.

ثالثها : تشير الآية إلى أن يكون الداعية على بينة من الأمر. يأتيه في طريقه في رفق ولين دون الغلظة وتنفير الناس منه [1].

دعوة غير المسلمين فرض عين على كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية.

يدل كذلك، على هذا التكليف العيني على كل فرد من أفراد الأمة آيتان تطلب احداهما من المؤمنين بذل غاية وسعهم في سبيل إقامة الشهادة على العالمين على أنها هي المسؤولية التي اجتبيت هذه الأمة لأدائها، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [2] [3].

1 - انظر محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام، ص 24 (د.ت).

2 - سورة الحج، الآية : 75.

3 - المقصود بالشهادة هنا هو أن ندعو الناس إلى دين الله باستيفاء شروطه ومستلزماته، فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر، فمن آمن منهم نشهد له في محكمة الله بساحة القيامة بأنه استجاب للدعوة وعمل بمقتضاها. وأما من كفر فنشهد عليه بأن أبى واستكبر. ويدل على هذا المعنى للشهادة قوله تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) [سورة ق: 20 – [21] السائق هوالملائكة يسوقها إلى الله ، أما الشهيد فهو من يشهد عليها بما عملت على حد تفسير مجاهد وقتادة وابن زيد لهذه الآية. (انظر ابن كثير: الجزء 4، ص241) وقوله تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ

أما ثانيهما فتكلف بالمهمة ذاتها على أن هذه الأمة هي وسيطة بين الله وبين عباده تبلغ عنه رسالته ثم يشهدون عليهم يوم القيامة، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] .

المسلمون شهداء على الناس، وشهادتهم تقتضي دعوتهم إلى الحق وشهودهم لحالهم في إيمانهم وكفرهم.

يقول محمد أبو زهرة : ((إن الله تعالى جعل المسلمين شهداء على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليهم، وشهادتهم تقتضي دعوتهم إلى الحق وشهودهم لحالهم في إيماهم و كفرهم، والرسول شهيد عليهم في أنهم بينوا شريعته ووضحوا رسالته للناس.)) [2] .

ولا يخفي على من له أدني إلمام بأسلوب اللغة العربية أن الخطاب الإلهي﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ **يتوجه إلى كل فرد من أفراد الأمة المحمدية حاملاً بين جنباته دلالة تكليفية وجوبية من غير أن تصاحبه قرينة تدل على عكس ذلك أو على أقل منه .**

يقول محمد أبو زهرة : ((إننا إذا رجعنا إلى ماكا يفعله الصحابة ومن بعدهم التابعون نجد كل من كان يعلم الإسلام وحقائق الإيمان يُعلِّم غيره من المشركين، وممن يتصلون به بصلة قرابة أو جوار أو لقاء فالدعوة كانت عامة)) [3] .

وما أحسب أن الدعوة حظيت بتلك العمومية إلا لأنها كانت تمثل ترجمةً عمليةً لإحساسهم العميق بهذا الواجب، كل على حدة – ذلك الذي نسميه واجباً عينياً –

عَلَى الظَّالِمِينَ) [سورة هود: 18] وأظن أن الرأي القائل بأن المقصود بالشاهد في كلتا الآيتين الملائكة، رأي غير الوجيه، لأن هناك آيات تدل على أن الأشهاد في يوم القيامة سيكونون من البشر، منها قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) [سورة النساء: 41].

1 - سورة البقرة، الآية : 143

2 - محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام. ص24.

3 - محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام. ص34.

انطلاقاً من الخطابات الإلهية المتوجهة سواء إلى النبي – والتي تنتقل إلى أتباعه تلقائياً – أو إلى أتباعه مباشرة.

على أن فريضة الدعوة وإن كان واجباً عينياً، لكن لا يعني ذلك أن المسلمين جميعاً يجب أن يتركوا أوطانهم و أشغالهم فيتجهوا شرقاً وغرباً، بل كل يؤديها حسب قدرته ووسعه – فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها – ولذا قال الإمام محمد عبده بعد أن قرر أن الدعوة فرض عين على كل مسلم : ((نعم، إن دعوة الأمة غيرها من الأمم إلى الخير الذي هي عليه لا يطالب كل فرد بالفعل، إذ لا يستطيع كل فرد ذلك، وإنما يجب على كل فرد أن يجعل ذلك نصب عينيه، حتي إذا عنّ له بأن لقي أحداً من أفراد تلك الأمة دعاه، لا أنه ينقطع لذلك ويسافر لأجله، و إنما يقوم لهذا طائفة يعدون له عدته، وسائر الأفراد يقومون به عند الاستطاعة فهي تشبه فريضة الحج، هي فرض عين ولكن على المستطيع))[1].

يجب على كل مسلم أن يجعل الدعوة نصب عينيه.

ولا يفوتني قبل أن أقفل هذا الطرف من الحديث أن أذكر بأن الظن السائد لدى المسلمين اليوم عن نوعية فريضة الدعوة أنها كفائية . غير أنني حين تأملت في الأدلة التي يستند إليها هذا الظن لم أر فيها ما يمكن الاعتماد عليه في مثل هذه المسألة الخطيرة، فأهم الأدلة النصية في هذا الإطار آيتان وهما :

أولاً قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. ووجه الاستدلال في هذه الآية أن ((من)) هناك للتبعيض [2] فيكون

1 - محمد رشيد رضا : تفسير المنار، الجزء 4، ص29 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973ميلادي.

المراد بالآية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ .....﴾ غيرأن هذا المدلول لحرف" من " ليس موضوع اتفاق، بل إن من المفسرين من قالوا إنها للتبيين [3]، فيكون معني الآية عندئذ : " كونوا أمة تدعون إلي الخير و تأمرون با لمعروف وتنهون عن المنكر"الأمرالذي يجعل دلالة " من " هنا دلالة ظنية تتسع لاحتمالين اثنين على السواء دون أن يترجح هذا على ذلك وفقاً للقاعدة الأصولية القائلة :" إذا تطرق الاحتمال بطل الاستدلال" [3]. فليس أمامنا، إذن، من بد للبت في هذا الأمر إلا استشارة نصوص أخرى غير ها تكون دلالتها متحدة وأكثر صراحة [4]، وقد أوردنا سلفاً مثل هذه النصوص التي دلت على كون فريضة الدعوة فريضة عينيةّ.

النصوص تدل على أن الدعوة فرض عين وليست فرض كفاية

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [5]

ووجه الاستدلال في هذه الآية، أن الله تعالى أ مر أن ينفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. و لعل القائلين بالفريضة الكفائية يعتبرون هذه الآية أكثر صراحة وتأييداً لمذهبهم. غير أن الرجوع إلى السبب والسياق الظر في

---

1 ـ سورة آل عمران، الآية 104.

2 ـ انظر الزمخشيري: الكشاف، المجلد1، ص 452.

3 ـ انظر القرافي: الفروق، الجزء 2، ص87، بيروت ، دار المعرفة، ط (د.ت).

4 ـ انظر محمد الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام، الجزء 4، ص260.

5 ـ سورة التوبة، الآية : 122

لنزول هذه الآية وكذلك تحديد " الطائفة " و" الفرقة " اللتين توجه إليهما خطاب الآية تثبت عكس هذا، ويذكر الطبري عدداً من الآراء في هذا الإطار نورد منها :

1 – " وهو نفر كان من قوم بالبادية بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمون الناس الإسلام، فلما نزل قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ [1] انصرفوا من البادية إلى النبي صلى الله عليه وسلم خشية أن يكونوا ممن تخلف عنه، ممن عني بالآية . فأنزل الله في ذلك عذرهم بقوله : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ وكره انصراف جميعهم من البادية" [2] .

وجوب استمرار الدعوة حتى في حال الاستنفار العام.

2 – عن مجاهد : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ قال : ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً ومن الخصب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم : " ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا ! فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتي دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الله : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ [3] .

وجوب الاستمرار في الدعوة والإعراض عن لومة لائم.

3 – عن ابن عباس : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ إلى قوله تعالى:﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ قال : " كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة :، فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه

1 - سورة التوبة، الآية: 120
2 - الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد 14،ص566، دار المعارف بمصر.
3 - المصدر السابق، والصفحة السابقة نفسهما.

عما يريدونه من دونهم و عمّا يفقهونه منه، ويقولون لنبي الله : ما تأمرنا أن نفعله، وأخبرنا ما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم ؟ قال فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله و يبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : ((إن من أسلم فهو منا، وينذرونهم))[1] .

العودة إلى غير المسلمين والاستمرار في دعوتهم إلى الإسلام.

ويمكننا أن نخلص من هذه الروايات الثلاث أن الآية تخاطب طائفة من الصحابة كانوا قد توافدوا من البوادي [2] فآمنوا وفقهوا دين الله ثم رجعوا إلى البوادي يدعون قومهم إلى الإسلام، فأنزل الله فيهم هذه الآية يطلب منهم العودة إلى البادية لينذروا قومهم ويستمروا في دعوتهم إلى الإسلام [3] .

1 ـ المصدر السابق، نفسه : ص569.

2 ـ وأظن أن ذلك كان في عام الوفود الذي كان قد أقبل فيه على رسول الله صلى الله طائفة من كل قبيلة وعشيرة، يُسلمون ثم يَرجعون إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام، وقد تزامن ذلك مع عزوة تبوك (انظر ابن كثير السيرة النبوية : الجزء 2، ص298، بيروت، دار الكتب العلمية).

3 ـ وقد ذكر ابن كثير احتمالين آخرين في تفسير هذه الآية لا أري أنهما توافق سياق نزول الآية :
أولهما : أن يخرج بعض الناس من كل قبيلة (مسلمة) إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع رسول الله إلى القتال بما ينزل من الوحي وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لما كان من أمر العدو (انظرو ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، الجزء 2 ص415) ولا أظن أن هذا يمكن أن يكون مراد الله وقت غزوة تبوك – حين نزلت هذه الآية – وعلى حد تعبير ابن كثير نفسه دعا رسول الله ومن حوله من أحياء الأعراب للخروج معه فخرج معه بشر كثير - ثلاثون ألفاً – وتخلف آخرون، فعاتب الله من تخلف منهم لغير عذر من المنافقين والمقصرين وذمهم ووبخهم وقرعهم أشد التقريع وفضحهم أشد الفضيحة وأنزل فيهم قرآناً يتلى ((سيرة ابن كثير، الجزء2، ص266). وليس من عدل الله أن ينزل مثل هذا التوبيخ والتقريع بعد أن ترسل كل قبيلة شرذمة قليلة إلى رسول الله تقابل معه وتتفقه في دين الله في الوقت ذاته، لينذروا قومهم القاعدين إذا رجعوا إليهم. لا أظن أن هذا مراد الله في تلك الظروف القاسية التي أمر الله المؤمنين بالتنفير على كل حال قائلًا : (انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) سورة التوبة : 41).
ثانيهما : ((ما كان المؤمنين لينفروا جميعًا ويتركوا النبي وحده)) فلولا نفر من كل فرقة طائفة)) يعني عصبة، أو السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن، علمهم القاعدون مع النبي، وقالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى)) (انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الجزء2، ص415) وأظن أن هذا الاحتمال

فخطاب الآية، إذن خطاب تأكيدي على استمرار فريضة الدعوة مهما كانت الدواعي والأسباب.

> أصبحت مسألة دعوة غير المسلمين أكثر إلحاحاً في العصر الحديث.

فالدعوة، إذاً ليست بالفريضة الكفائية كما يذهب إليه البعض، بل هي فريضة عينية يجب أن يعمل لها كل فرد من أفراد هذه الأمة حسب إمكاناته ووسعه وبخاصة في هذا العصر الذي أصبحت أهميتها تشتد وتتأكد أكثر من أي عصر من العصور الغابرة .

الثاني أيضًا غير وارد في هذه الآية وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أنها نزلت أثناء عزوة تبوك التي خرج إليها رسول الله نفسه، كعادته في كبرى الغزوات. فأنى للصحابة أن يتركوا النبي وحيداً في المدينة. أما ما يتعلق بالسرايا فإن رسول الله كان يرسل لها بعض الصحابة ويبقى معظمهم معه في المدينة. ولم أسمع أن سرية من السرايا خرج لها الصحابة كافة تاركين رسول الله وحيداً في المدينة ، فتنزل هذه الآية لتنظيم هذا الأمر.

الأهمية الاستيراتيجية لدعوة غير المسلمين في العصر الحديث



وإذا تناولنا مسألة الدعوة إلى اللّه في العصر الحديث من منظور آخر وهو المنظور الاستراتيجي فإنه هو الآخر يؤكد أهميتها ويبرز ما يمكن أن تلعبه من الدور العظيم في هذا الوقت العصيب من تاريخ الأمة الإسلامية .

لقد كنا يوما سادة الأرض وقادة الشعوب.

لقد كنا يوماً سادة الأرض وقادة الشعوب، وكنا مع قلة العدد والعدة قد هزمنا أعرق وأقوى إمبراطوريتين في العالم آنذاك، الفارسية من الشرق، والرومانية الممتدة في الشمال والغرب إلى حيث شاء اللّه. وكنا قد دككنا حصون أوروبا من الجنوب الغربي وعشنا في الأندلس ثمانية قرون وهي أطول مدة عاشها شعب فاتح في بلاد بعيدة، ثم بلغنا بفتوحاتنا إلى جنوبي إيطاليا حتي وصلنا إلى ضواحي روما . وفي القرن الخامس عشر الإفرنجي، وبالتحديد عام 1453م دك القائد المسلم العظيم محمد الفاتح [1] حصون القسطنطنية وسار إلى كنيسة سانت صوفيا، فأذَّن من فوق قبابها للصلاة. وباختصار لقد كانت معظم بقاع المعمورة خاضعة لسيادتنا المطلقة، فكانت الشمس لا تغيب عن أرضنا، والسماء مملوءة بألويتنا، مما جعل أحد خلفائنا و هو هارون الرشيد [2] يقول في عزة المؤمن وجلال المسلم، وهو يرنو إلى غمامة تسير في السماء " إذهبي فأمطري أين شئت فسوف يأتينا خراجك ".

أذهبي فامطري أين شئت فسوف يأتينا خراجك.

[1] - وهو محمد الثاني (1432 – 1481) سلطان عثماني، فتح القسطنطينية عام 1453ميلادي (انظر منير البعلبكي : المورد : قاموس إنجليزي عربي، ملحق (معجم أعلام ص61).

[2] - وهو هارون (الرشيد (766 – 809) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي..... أبو جعفر : خامس خلفاء الدولة العباسية، ولد ونشأ ببغداد وبويع بالخلافة سنة (170هـ) توفي في "سناباذ" من قرى طوس، وبها قبره . (انظر خير الدين الزركلي : الأعلام، الجزء 8، ص62).

هذا ماكان في الماضي، أما في الحاضر فقد تبدلت الحال إلى غير الحال وتتابعت الهزائم على المسلمين في كل مناطق الأرض منذ هزيمة الجيش العثماني في أبواب فيينا، عاصمة النمساء، في أوائل القرن العشرين، فزحفت هولندا على الجزر الإندونيسية، ومدت بريطانيا سلطانها على الهند، واستولت فرنسا على شمال إفريقيا، ودخلت إيطاليا في ليبيا، وتم تحطيم المسلمين كقوة عسكرية وسياسية في الحرب العالمية الأولى، فأصبحت الشعوب الإسلامية يتصرف في أمور ها الغرب، فيستعبد أبدانها وينهب مواردها ويتحكم في مصيرها.

قد تبدلت الحال إلى غير الحال وأصبحنا نهبا للآخرين.

وما كان الاكتساح الغربي الاستعماري هذا للعالم الإسلامي في الميدان العسكري والسياسي فحسب، كما كان شأن التتار، وإنما هو اكتساح ساحق دكّ المنظومة الحياتية التقليدية بكاملها في عرض العالم الإسلامي و طوله. وماكان التفوق العسكري والسياسي إلا جزءاً من التفوق الكلي الشامل في البنية التحتية للعالم الغربي الذي تحقق عبر جهود متواصلة استغرقت مدة ستة قرون من بعد الهزيمة المنكرة التي مني بها الغرب في الحروب الصليبية التي انتهت في أواخر القرن الثالث عشر لصالح المسلمين . في هذا يقول أرنولد توينبي : ›› إن الغرب الحديث متفوق على الإسلام ليس في مجال الأسلحة فقط، بل في تقنية حياته الاقتصادية، والتي تشكل أساس العلوم العسكرية... ‹‹ [1] ويقول أيضاً : ›› إن سر تفوق الغرب في فنون الحرب منذ قرن السابع عشر ليس في الأسلحة الغربية ولا في

الاكتساح الغربي للعالم الإسلامي اكتساح شامل لا يمكن إنهاؤه بإلحاق الهزيمة في الميدان العسكري.

[1] - أرنولد تويني : الإسلام والغرب والمستقبل، تعريب : الدكتور نبيل صبحي، ص36-37، بيروت، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ط1/ 1969ميلادي.

التدريب العسكري وليس حتي في التقنية المدنية التي تزود العسكريين بالمعدات، ولا يمكن أن تفهم الأمر ما لم نضع في حسابنا فكر وروح المجتمع الغربي اليوم، والحقيقة هي أن الفن الحربي وجه من وجوه نمط الحياة الغربية ›› [1].

وواضح أن مثل هذا الاكتساح والتفوق الغربي لا يمكن زحزحته بمجرد مناهضة الغرب في الميدان العسكري والسياسي، لقد ناهضناهم فعلاً وانتصرنا عليهم في هذين المجالين و لكن ذلك لم يغير من الواقع شيئاً، بل لا تزال الشعوب الإسلامية يتصرف في شؤونها ويتحكم في مصيرها الغرب الصليبي بوسائله المتنوعة.

كما أن من العسير أن نزحزح العالم الغربي عما وصل إليه من السطوة والغطرسة عن طريق الإقبال على مشاريع من يعرفون بالتنويريين الذين ينادون إلى ترويض العقول الشرقية على غرار العقول الغربية كي تصنع وتخترع كما صنعوا واخترعوا. فآخر ما يستطيع أن يقودنا إليه هذا الأمر هو أن ننشىء دولة تكون في اختراعها وعلومها وتكنولوجياتها وصناعتها طبق الأصل لدولة غريبة، تتساوى معها في العزة والكرامة – وهذا جيد إذا تحقق وإن كان ذلك بعيد المنال وبخاصة نحن في عالم يصف الناقد الغربي بول كيدي في كتابه ‹‹ الاستعداد للقرن الحادي والعشرين ›› بالقول : ‹‹ فبعيداً عن الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، يبدو أن معظم العالمين العربي والإسلامي يجد صعوبة في التعامل حتي مع القرن التاسع عشر ›› [2]

مشاريع التنويريين لا تجدي فتيلاً.

1 - نفس المصدر السابق، ص 23-24

2 - بول كنيدي : الاستعداد للقرن الحادي والعشرين، ترجمة : محمد عبد القارد غازي مسعود، ص266، بيروت، دار الشرق (د . ن).

ولكن حتي في حالة ماإذا تحقق هذا الأمل لن يتحول التأخر تقدماً ولا الذل مجداً، إذ المتقدم سيزداد تقدماً من غير أن ينتظر و يتوقف قرناً أو قرنين حتي نلحق به لننطلق سوياً، بل إننا حين نصل إلى القمر سيكونون هم قد وصلوا إلى ما وراء المريخ. إذن، أي مجد هذا الذي نتوخاه في البقاء ذيلاً أبدياً لأولئك الذين تقدموا عنا بقرون طوال. وقد سخر أرنولد توينبي، من قبل، من مثل هذه المحاولات قائلاً : " وعند ما ندرك تماماً هدفهم الذي رموا إليه، لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة : هل يبرر هذا الهدف حقاً الجهد الذي بذلوه في صراعهم لبلوغه " [1].

إن معظم العالمين العربي والإسلامي يجد صعوبة في التعامل حتى مع القرن التاسع عشر.

نعم، لا هذا ولا ذاك ينقذنا من هاوية النكسة التي نقاسيها، بل لا بد من العودة إلى المشروع الإلهي الذي وضع الله فيه مجد هذه الأمة من قبل ومن بعد، في الدنيا والآخرة . وهذا المشروع هو بلاغ رسالة الله للناس ودعوة الشعوب إليها . الأمر الذي هزم تتار القرن السابع الهجري وسيهزم تتار العصر الراهن.

لا بد من نقل المعركة من ميادين أخرى إلى ميدان موات لنا نضمن فيه النصر من طرف واحد.

وإذا كان الغرب قد غير استراتيجيته نحونا بعدالحروب الصليبية، كما يؤكد بعض الباحثين، من المواجهة العسكرية الخارجية إلى المواجهة العقدية [2] التي زعموا أنهم سيربحون فيها، فما الذي يمنعنا من إنتهاج المنهج عينه، فننقل المعركة من ميادين أخرى خاسرة[1] إلى ميدان موات لنا نضمن فيه النصر من طرف واحد، و هو ميدان المعركة

---

(1) [1] ـ أرنولد توينبي : الإسلام والغرب والمستقبل ص51.

[2] ـ انظر الدكتور محمد فتح الله الزيادي : انتشار الإسلام، ص47، دمشق، دار قتيبة، ط1، 1990ميلادي.

العقدية من غير ما حاجة إلى أن نسلك الطريق ذاته الذي سلكه الغرب في مواجهة عقيدتنا من تشويه وتزوير عبر مجهوداستشراقي ضخم، فعقيدتهم و نصوصهم المقدسة محرفة من الأساس، وهي محتوم عليها أن تزهق عندما نقابلها بعقيدتنا الحقة الصافية، فالباطل أبداً كان زهوقًا في لقائه مع الحق.

> إن غير المسلمين في حالة جهل مغرق عن حقيقة الإسلام وسيرة نبي الرحمة والسلام.

وأظن أننا لو لمنا شتات مجهوداتنا وصرفناها متضافرة في هذه الواجهة، واجهة "البلاغ المبين" للعقيدةالنقية والوحي المحفوظ، فإن ذلك سيكون بمثابة عصا موسى التي من شأنها أن تلقف ما يأفكون فكل ما هناك من تفوق وصناعات ما هي إلا كحبال السحرة وعصيهم التي يخيل إلينا بفعلهم أنها تسعى، ولكن سرعان ما نلقى بعصا عقيدتنا، فأنها ليس فقط ستلقف الحبال بأنواعها والعصي بأشكالها بل ستكسب الفعلة أيضاً على غرار سحرة فرعون، ويكون ذلك نهاية لكافة أنواع الكيد والمؤامرات، والأحقاد والعداوات،حتي في حالة عدم إعلانهم الإيمان أفراداً وجماعات.وذلك أن العداوة ليست شيئاً يولدون معها، وإنما هي شيء طارئ تدفع إليها الدواعي، ولكنها تزول أيضاً، بدليل قوله تعالى :﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

> الدعوة هي عصا موسى التي من شأنها أن تلقف ما يأفكون.

وأظن أن دواعي عداوة الجيل الحاضر من العالم الغربي ضد المسلمين هي ما راج بينهم، في غياب الدعوة والبلاغ، من صور مشوهة عن الإسلام يقشعر منها الجلود وتتقزز منها النفوس، لنسمع هذه الكاتبة الأمريكية المسلمة سوزان حنيف (Suzane Haneef) تقول عن شعبها: "تبلغ ضحالة العلم بالإسلام وضيق فهم له في الغرب بعامة، وفي أمريكا

[1] - سورة فصلت، الآية : 34

بخاصة، حداً، بحيث يعني الإسلام لديهم، ببساطة، طائفة أو فرقة دينية غريبة، و((اللّه)) عبارة عن إله وثني يعبده الوثنيون، أما محمد فهو شخص يعبد من قبل المشركين البدو، والمسلمون بدو قتاليون عسكريون متعطشون للسيف يركبون الجمال، متعصبون دينياً، لباسهم جلابيب مديدة ولحاهم طويلة، ولهم شره جنسي عظيم)) [1] وقد سببت هذه الصورة المشوهة في عدم ثقة الغربيين بالإسلام، فهم يخافونه ويعتبرونه خطراً عظيماً [2].

وقد أرجعت سوزان حنيف سبب هذه الصورة عن الإسلام إلى التراث التاريخي للشعب الأوروبي – ذلك التراث الذي تكوّن أثناء المواجهات العسكرية وقت الحروب الصليبية وما بعدها، - و((الدعايات ضد العدو ومعتقداته وطريق عيشه من الأمور العامة المألوفة أثناء المواجهات)) [3] – و إلى أعمال المسلمين البعيدة عن الإسلام . أياً كان الأمر فإن الذي يدعو إلى الاستغراب هو أنه رغم مرور سبعة قرون طويلة على رواج هذه الصورة الشائهة عن الإسلام، لم يحرك المسلمون ساكنهم لتكثيف الجهود لطرق أبواب الغربيين باباً باباً تبليغاً لرسالة اللّه الصافية التي كلفنا بها، ثم تصحيحاً لتلك النظرية المشوهة التي تسبب متاعب جمة في عقر دارنا، تلك المتاعب التي مهما حاولنا تذليلها وتداركها بالمحاولات

إن عصمة هذه الأمة وحمايتها تكمن في الدعوة.

[1] - Suzane haneef: What Everyone Should Know about Islam and Muslims, Kazi publications Inc. USA(منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس حالياً) ص VIII.

[2] - المصدر السابق نفسه، ص viii

[3] - المصدر السابق نفسه : صIX .

الدفاعية ونحن جالسون في بيوتنا فإن ذلك لن يغني فتيلاً، بل هو كما يقول عمر عبيد حسنة،" كلما حاولت – الأمة – الانتصار على مشكلة أو كادت، قذف إليها بغيرها"[1]

فالأفضل إذا أخذت أوراق الشجرة تيبس أن نصب المياه في جذورها وليس على أوراقها .

والحقيقة أن صعود وسقوط هذه الأمة – الأمة الإسلامية – تتحكم فيه إلى حد بعيدٍ، نواميس إلهية خاصة، وهي أن عصمة هذه الأمة وحمايتها من الأخطار الخارجية تأتي على قدر نهوضها ببلاغ الوحي المقدس وقد أعلن هذا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[2]

بل هو سنة الله أبداً مع من يكلفهم بالبلاغ إذاهم بلغوا . فقد عصم إبراهيم -عليه السلام-بعد البلاغ وجعل له النار برداً وسلاماً، كما عصم موسى وعيسى ونوحاً ولوطاً- عليهم السلام- ، بل تلك سنة الله مع الدعاة في كل زمان ومكان إذاهم بلغوا [3]، " ولن تجد لسنته تحويلاً" . أما إذا لم يبلغوا أولم يصلوا في بلاغهم منتهاه فإن سنته هي إلحاق العذاب بالمكلفين بالبلاغ – كما حدث مع يونس -عليه السلام – ولِي من الاعتقاد أن ما

إن صعود وسقوط الأمة الإسلامية تتحكم فيه نواميس إلهية خاصة.

[1] - عمر عبيد حسنة : مسيرة العمل الإسلامي، ص62 بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2/1985ميلادي.

[2] - سورة المائدة : 67 (وتجدر الإشارة إلى أن موعود العصمة من قبل الله في الأصل كان لرسوله – صلى الله عليه وسلم- بصورة خاصة، ولكنه يشمل الأمة أيضاً تبعاً له)

[3] - وقد ذكر القرآن قصة رجل مؤمن قد آمن بموسى ولكنه كتم إيمانه خوفاً من فرعون، ولكن فرعون حين عزم على قتل موسى لم يتمكن الرجل من الصبر والسكوت على الحق، فقام مدافعاً عن موسى عليه السلام وكلم فرعون وملأه بأسلوب دعوي. قد كان طبيعياً أن يطوق فرعون وملأه هذا الرجل بالعذاب والتنكيل غير أن سنة الله تحركت في هذ المجال (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) (سورة غافر:45)

نحن فيه هوحوت هذا العذاب الذي أحاط بنا من كل جانب . ولا منجاة لنا منه إلا إذا أتينا بتوبة يونس، فنعقد العزم على العودة إلى من كلفنا ببلاغهم.

أما سنة الله بالمدعوين إذا هم قبلوا الدعوة فهي وقايتهم من خطوب الدنيا وعذاب الآخرة، وأما سنته مع من يرفض الدعوة رغم بذل الداعي ما يملكه من القدرة والوسائل فإن سنته في مثل هذه الحالة، هي نصرة الداعي أولاً، ثم إلحاق العقاب بالذين رفضوا دعوة الإيمان وجحدوا بآيات الله البينات التي صرف الداعي في بيانها ليله ونهاره. وفي هذا يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [1]

الدعوة تستقطب نصرة الله وتستدعي غضبه على الجاحدين.

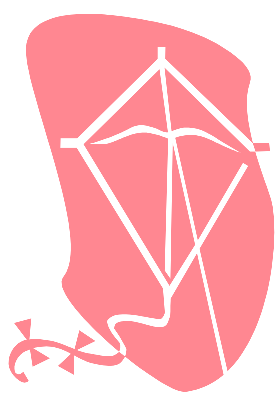
وقد ترك الله جثة فرعون آية ليعتبرمنها الذين يشكون في هذه السنة الإلهية، كما أن الله تعالى طلب إلى الناس أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم. وليس من اللازم أن يأتي هذا العذاب بصورة قلب الأرض أو حجارة من السماء، بل ربما يكون ذلك عن طريق ضربٍ للذلة والمسكنة وإحلالٍ للضنك المعيشي : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[2] [3]

[1] - سورة يوسف، الآية : 110.

[2] - سورة طه، الآية : 124.

[3] - ولا يفوتني أن أذكر هنا كذلك أن من سنة الله أيضًا عدم إنزال مثل هذا العقاب إلا بعد البلاغ المبين (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (سورة الإسراء : 159) والسبب في ذلك أن موقف الإنسان من الله ومن دينه لا يتبين قبل البلاغ المبين، إذ إنه قبله يكون في حالة الجهل لا يعلم ما هي مطالب الله منه، وربما كان هذا سبباً في تسمية المجتمع العربي، قبل البعثة، بالجاهلية أما بعد البلاغ المبين، الذي لا يعلم موعده إلا الله - وقد استغرق لسيدنا نوح ألفاً إلا خمسين سنة ولمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر سنة بالنسبة إلى أهل مكة

فإذا كان بلاغ وحي اللّه المقدس هو الذي يستقطب لنا نصره ويستدعي غضبه على الجاحدين، فما الذين يدعونا إلى إضاعة الوقت والقدرات والإمكانات في جبهات أخرى خاسرة. بل من الخير أن نضع أنفسنا في مشروع اللّه الأزلي الذي من أجله كان يبعث الأنبياء من قبل ثم اصطفي اللّه هذه الأمة بسببه من بعده. ولندع سنة اللّه، بعد ذلك، تتحرك لصالحنا بصورة تلقائية فنفوز بنصرته في الدنيا وثوابه في الآخرة.



– فيزول الجهل ويتبين الرشد من الغي، فمن رفض بعده فهو كافر. ولذا لم يخاطب الله أهل مكة بـ((الكافرين)) إلا متأخراً، بل كان الخطاب في المراحل الأولى بـ((يا أيها الناس)).